

الحلقة الثانية
قصص السيرة

القصص النبوية

حليم السعيد

عبد الحميد جودة السحار

٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

(القرآن الكريم)

وَضَعَتْ آمَنَةُ ثَدْيَهَا فِي فَمِ ابْنِهَا ، فِي الْيَوْمِ الثَّانِي
لِوَلَدِهِ ، فَلَمْ تَجِدْ فِيهِ لَبَنًا ؛ فَقَدْ جَفَّ لَبْنُهَا ، لَمَّا أَصَابَهَا
مِنْ حُزْنٍ لَمُوتِ زَوْجِهَا . وَكَانَ الْحَرُّ شَدِيدًا فِي مَكَّةَ ،
فَحَشِيثَتْ آمَنَةُ أَنْ يُؤَثِّرَ هَذَا الْحَرُّ فِي ابْنِهَا ، فَارْحَتْ
تَبَحُّثُ عَنْ مَرْضِعٍ تُرْضِعُهُ ، حَتَّى تَأْتِيَ الْمَرَاضِعَ مِنَ
الْبَادِيَةِ ، فَتُعْطِيَهُ مَرْضِعًا مِنْهُنَّ ، تَأْخُذُهُ مَعَهَا بَعِيدًا عَنْ
حَرِّ مَكَّةَ الشَّدِيدِ .

وَوَجَدَتْ آمَنَةُ أَنَّ ثَوْيَةَ جَارِيَةَ عَمِّهِ أَبِي هَبٍ تُرْضِعُ
ابْنَهَا ، فَأَعْطَتْهَا مُحَمَّدًا لِتُرْضِعَهُ ، فَأَخَذَتْهُ ثَوْيَةُ ،
وَأَرْضَعَتْهُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، وَبَعْدَهَا عَلِمَتْ آمَنَةُ أَنَّ الْمَرَاضِعَ
جُنَّ مِنَ الْبَادِيَةِ إِلَى مَكَّةَ ، يَلْتَمَسْنَ الْأَطْفَالَ ، فَطَلَبَتْ
مِنْ جَدِّهِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ ، أَنْ يَخْرُجَ ، لِيَبْحَثَ لَهُ عَنْ
مَرْضِعٍ .

لم ينزل المطرُ في هذه السنة ، فلم تثبتِ المراعى في
هوازن . وهى قَبيلةٌ من قبائل العرب ، فكانت سنةً
شديدةً على الناس ، حتى إن عَشْرًا من نساءِ بنى
سعد ، من هوازن ، خرجنَ إلى مكةَ يَطْلُبْنَ الرُّضْعَاءَ ،
وكانت من بينهن حليمةُ بنتُ أبى ذؤيب ، وخرج معها
زوجُها الحارثُ بنُ عبدِ العزى ، وكانت تحملُ ابنها
عبدَ الله ، وترضعه .

ركبت حليمةُ حمارَها الأبيض ، ومعها ناقةٌ مُسننة ،
ليس فى ضرْعها قَطْرَةٌ لبن . وسار الرِّجالُ والنِّسوةُ فى
طريقهم إلى مكة ، حتى إذا جاءَ الليلُ ناموا فى خِيمة ،
وما كانت حليمةُ وزوجُها ينامان من بكاءِ ابنيهما .
كان يَبْكى من الجُوع ، فما كان فى ثَدْيِ حليمةَ لبن ،

ولولا الشدة التي كانت فيها ما خرجت تطلب
رضعاء . كانت تطمع في أن تأخذ ابن غني يدفع لها
مالاً كثيراً يساعدها على العيش .

وفي الصباح ، استأنفوا السير إلى مكة ، وقد تأخروا
عن الوصول إليها ؛ لأن حمار حليمة كان ضعيفا
هزيلا ، فكانوا يضطرون إلى انتظارها .

وأخيراً وصلوا إلى مكة ونزلوا بها ، وانتظروا أن
يأتي من يطلب المراضع . وكانت كل مريض ترجو أن
تعود ومعها طفل من أبناء الأغنياء .

خرج عبدُ المطلبِ إلى المراضع ، يُعرضُ عليهن
 حفيدهُ مُحَمَّدًا ، فراحَ يدُورُ عليهن ويقول :
 - يا هذه ، إن عندي غلامًا يتيما ، أتأخذينه ؟ فتقول
 المُرْضِع وهي تُعرضُ عنه :
 - ما عند اليتيم من الخير ؟ ! إنا نلتمسُ الكرامةَ من
 الآباء .

واستمرَّ عبدُ المطلبِ يُعرضُ على المراضعِ أخذَ
 مُحَمَّدَ ، ولكنَّهن رَفَضْنَ أن يأخذنه ، لأنه يتيما ، ليس له
 أبٌ تَلْتَمَسُ الأموالُ منه .
 وأخذتْ كلُّ مَرْضِع طِفْلا ، وعبدُ المطلبِ يُعرضُ
 حفيدهَ عليهن فيقلن له :
 - يتيما ؟ ! ما عسى أن تصنعَ أمُّه وجدُّه !

كرهته المراضع لذلك ، وما بقيت امرأة إلا أخذت
رضيعاً غير حليلة ، وأجمعت النسوة على الرجوع إلى
ديارهن ، فالتفت حليلة إلى زوجها الحارث ، وقالت :
- والله إنى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ولم
أخذ رضيعاً .

ورآها عبد المطلب تنتظر ، فذهب إليها ، وقال :
- من أنت ؟

فقالت حليلة :

- أنا امرأة من بنى سعد .

- ما اسمك ؟

- حليلة .

فتبسّم عبد المطلب وقال :

- سعد وحلم ! خصلتان فيهما خير الدهر ، وعز
الأبد . يا حليلة ، إن عندى غلاماً يتيماً ، وقد عرضته

على نساء بنى سعد ، فأبين أن يقبلنه ، وقلن : ما عند

اليتيم من الخير ! فهل لك أن تُرضعيه ، فعسى أن
تسعدى به ؟

فقالت له حليلة :

- انتظرني حتى أشاورَ زوجي .
وشاورتَ زوجها ، فقال لها : خُذيه .
فرجعت إلى عبدِ المطلب وقالت :

- أين الصبي ؟

فرح عبدُ المطلب ، لأنه وجدَ مُرضعاً لمحمد ، وقال
لها :

- تعالى .

وأخذها إلى بيتِ آمنة ، فقابلتها آمنةُ مرحبةً ،
وأدخلتها إلى حيثُ ينام محمد . نظرتُ إليه حليلة ،
فوجدته ملفوفاً في ثوبٍ من الصوف الأبيض ، وتحتَه
حريرَةٌ خضراء ، راقداً على قفاه ، فأشفقتُ أن توقظه
من نومه ، لحسنه وجماله ، فوضعتُ يديها على صدره ،

فتبسّم ضاحكا ، وفتح عينيه ، فأحسّت حليلة انجذابا إليه ؛ أحبته لَمَّا رَأَتْهُ ، فمالت عليه ، وقبّلتُه بين عينيه ، ثم مالت وحملتَه ، وخرجت به إلى صواحبها .

٤

وضعتُ حليلةً في حجرها ، ووضعتُ ثديها في فمه ، فإذا بثديها قد امتلأ لبنا ، فأرضعته وهي تعجب ، وأرضعت ابنها عبد الله حتى ارتوى ، ولما جاء الليل ناموا ملء الجفون ، وما كانوا ينامون من صياح عبد الله ، الذي كان يَبْكِي من الجوع .

وفي الصّباح قام الحارثُ زوجُ حليلةٍ إلى الناقة المسنة ، فحلب منها ما شرب ، وما قدّمه لحليمة حتى شبع ، فقال الحارثُ لزوجته :

- تعلّمي يا حلّيمة ، لقد أخذتِ نَسْمَةً مباركة .

فقالت له حلّيمة :

- واللّه إنى لأرجو ذلك .

واستعدّ القوم للعودة إلى بنى سعد ، فركبت حلّيمة

حمارها الهزيل ، وحملت محمّدا معها وإذا بالحمار يجرى

حتى يسبق الركب ، فنظر صواحبها إليها فى عَجَب .

- يا حلّيمة ، أليسَ هذا حمارك الذى خرجت عليه ؟

- إنه هو .

ترعرع محمدٌ في بني سعد ، حتى إذا بلغ سنتين ،
 خرجت به حليلةٌ إلى أمه وهي حزينّة ، أحبّته حبًّا
 شديدًا ، حتى كان يُحزنُها أن تفارقه .

وضمّت آمنه ابنها إليها في حب ، وقبلته ، وأرادت
 أن تبقىّه إلى جوارها ، وأحسّت حليلةُ أُمّها لفراقه ،
 فقالت لآمنة :

— دعيّا نرجع به هذه السنة الأخرى ، فإني أخشى
 عليه وباء مكة .

وطلت حليلةٌ تتوسل إليها أن تردّه معها سنة
 أخرى . حتى قبلت آمنه ، ففرحت حليلةٌ وأخذته
 مسرورة ، فقد كانت تحرص على أن يُمكثَ فيهم .

وعادت به إلى دارها ، فكان يخرجُ ينظرُ إلى الصَّيَّانِ
يلعبون فيحسبهم ، ويبحثُ بعينه عن أولادِ حليلةِ فلا
يجدهم فذهب إليها يوماً وقال :

- ما لي لا أرى إخوتي بالهار ؟

فقالت به :

- قدتكَ نفسي ، إنهم يرعون غنماً لنا .

- ابغثيني معهم .

وخرج محمدٌ يرعى الغنم ، وكان يخرجُ مسروراً ،
ويعودُ مسروراً ، ينظرُ إلى السَّماءِ وإلى الفصاءِ وفي
ذاتِ يومٍ خطر له أن يصعدَ في الجبل ، فراح يرتقيه ،
ورآه ابنُ حليلةٍ وهو يصعد ، فحرى إلى أمه يخبرُها ،
فراحت حليلةٌ وزوجُها الحارثُ يعدوان ، حتى إذا
بلغاه وجداه حالسا على قِمةِ الجبل ينظرُ إلى السماء ،
كان على رَغمٍ صغره مشغولاً بالكون يُقلِّبُ

بصره فيه .

فحملته حليلة ، وقبّله بين عينيه ، وأخذت تهبطُ
به ، دون أن يخطرَ على بالها أنه قد ارتبطت الأسبابُ
بينه وبين السماء .

وأقيم سوقُ عُكاظ ، وكان العربُ يجتمعون فيها ،
يذكرون مفاخرهم . وكان المنجمون يكثرُونَ في هذه
السوق ، والناسُ يعرضون صيَّانهم عليهم . ورات
حليمةُ أن تذهبَ إلى هذه السوق ، فلما بلغتْها قدَّمت
مُحمداً إلى العراف (المنجم) ، فنظر العرافُ إليه
وصاح :

— يا معشرَ العرب ، يا معشرَ العرب .

فاجتمع الناسُ إليه ، فصاح :

— اقتلوا هذا الصبي .

والتفت فلم يجدِ الصبي ، وكانت حليمةُ قد فرَّت

بمحمَّد ، فصاح الناس :

— أيَّ صبي ؟

فيقولُ العراف :

— رأيتُ غلاما ، والآلهة ليقتلن أهلَ دينكم ،
وليُكسرنَ آلهتكم ، وليُظهرنَ أمره عليكم .

٧

أصبحَ عُمرُ محمدٍ ستَّ سنواتٍ ، فأخذته حليلةٌ
لتعيده إلى أمه ، ولما لاحت لها مكة ، التفتت إليه ، فلم
تجدّه ، فراحَت تبحثُ عنه ، فلما لم تجده فليقت ،
وذهبت إلى جدّه عبد المطلب ، وقالت له :

— إني قدِمتُ بمحمدٍ هذه الليلة ، فلما كنتُ بأعالي
مكة أضلّني ، فوالله ما أدرى أين هو ؟

وكان رجالان من قريش قادمين إلى مكة ، فوجدا
صبيا صغيرا في وادي تهامة عند الشجرة ، يقلّب
وجهه في الكون ، فقالا له :

— من أنت ؟

فقال في ثبات :

- أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم .
فاحتملاه ، وذهبا إلى عبد المطلب ، فلما رآه جدُّه
قام إليه يعانقه ، وفرحت حليلة به ، وأخذته إلى أمه ،
فقالت لها آمنة :

- ما أقدمك به ، وكنت حريصة عليه ، وعلى مكثه
عندك ؟

فقالت حليلة :

- قد قضيت الذي على ، وتخوفت عليه الأحداث
فأدبته إليك كما تحبين .

وتركته حليلة لأمه وانصرفت . ولن يمكث محمد
مع أمه طويلا ، إن هسى إلا أشهر قليلة ، حتى تموت
آمنة وتتركه ، فقد كتب عليه أن يشبَّ يتيما .